بسم الله الرحمن الرحيم

ا0د0سلمى عبد الحميد حسين الهاشمي
جامعة البصرة- كلية الآداب – قسم التاريخ

عنوان المحاضرة : اسباب ضياع الحقيقة التاريخية
محور المحاضرة : ضياع المصنفات التاريخية
الخميس الموافق 2019/7/4

شهدت القرون الاسلامية الاولى انشاء العديد من خزائن الكتب العامة والخاصة ، التي تضم الكثير من المصنفات التاريخية ، الا ان نسبة كبيرة منها كان مصيرها الضياع والتلف سواء كان ذلك بشكل متعمد ومقصود ، ام غير متعمد ساهمت في ضياعها اسباب عديدة ومختلفة 0
وللتدليل على حجم ما حوته خزائن الكتب ورواج حركة التصنيف من خلال مراجعة كتب الفهارس ولنأخذ على سبيل المثال كتاب الفهرست لابن النديم (ت385 هـ) فأنه يضم قوائم عديدة بأسماء مختلف المصنفات في مختلف صنوف المعرفة ومنها المصنفات التاريخية، الا ان اغلب تلك المصنفات بقيت مجرد عناوين مذكورة او بقي منها روايات متناثرة في بطون المصنفات الاخرى ، او وصل الينا منها نزر يسير ، ولا نبالغ القول بأن حوالي (30-35) من تلك المصنفات هي التي سلمت من نوائب الزمن ووصلت الينا ، وهذا يعني ان المفقود ويقدر بحوالي (65-70 %)
وللتدليل اكثر على حجم الضياع نذكر على سبيل المثال مؤلفات مؤرخ البصرة عمر بن شينة النميري(ت262هـ) ، فقد احصن له ابن النديم كتاب واحد عن (تاريخ المدينة المنورة) وحتى هذا الكتاب يذكر المحقق انه غير متكامل ، والشاهد الاخر مؤلفات المؤرخ ابن طيفور (ت280 هـ) صاحب كتاب بغداد وهو اول من صنف في تاريخ بغداد ، فقد جاء ان لابن طيفور (54) كتاب لم يصل منها سوى جزء واحد من كتاب بغداد – من اصل 12 جزء – وهو الجزء السادس الخاص بأخبار المأمون العباسي ، وايضاً هذا الجزء فيه سقط ونقص ، كما وصل ثلاثة اجزاء فقط من كتاب المنشور والمنظوم الذي يتكون من (14) جزء وغيرها0
ان غياب تلك المصنفات او تغييبها قد ساهم في ضياع جانب من الحقيقة التاريخية ، ويقف وراء ضياع المصنفات التاريخية اسباب عديدة شخصها الثعالبي صاحب يتيمة الدهر بقوله : (الكتاب ملقى ولا موقى ، تسرع اليه اليد الخاطئة ، وتعرض له الآفات السانحة ، فالماء يغرقه كما ان النار تحرقه ، والريح تطيره كما ان الايام تغيره ، والدخان يسود بيامنة كما ان

الخل يبيض سواده ، والرطوبة تضره كما ان اليبوسة لا تنفعه ، فآفاته اسرع من افات الزجاج الذي يسرع اليه الكسر ويبطئ عليه الجبر0000)

وفي ضوء قول الثعالبي وما ورد من شواهد تخص ضياع العديد من المصنفات يمكن تشخيص الاسباب كالاتي :

اولا : الاسباب السياسية والعسكرية :

شكلت الاسباب السياسية احد اهم اسباب ضياع المصنفات التاريخية ، او لعبت السلطات الحاكمة وبشكل متعمد دور كبير في اتلاف خزائن الكتب العامة او الخاصة ، او كتب محددة شكل وجودها خطراً يهدد المتبنيات الفكرية للأنظمة السياسية ، فكل نظام سياسي جديد يسعى الى اتلاف الموروثات الفكرية للأنظمة السابقة، ويعمل على تجميل الاخيار الخاصة به، وتشويه سواها من الاخيار ، ومن الامثلة على ذلك نذكر ما فعله السذاجقة حينما سيطروا على الخلافة العباسية ودخلوا الى بغداد سنة (474 هجرية) فانهم عمدوا الى اتلاف المكتبات العامة التي انشأها البويهيين للاختلاف المذهب المعتقد وكذا فعل الايوبيين في اتلاف مكتبات الفاطميين ، وهكذا الامر يحدث في كل زمان ومكان 0

وفي بعض الاحيان يمتد الاتلاف السلطوي المتعمد الى المكتبات الخاصة او لكتب محددة لاحتواءها على المعلومات يشكل التعرف عليها خطراً، او انها تحمل فكراً او اعتقاداً مخالفاً، فكان لا بد من اتلافها ، ونذكر هنا على سبيل المثال ما فعله سليمان بن عبد الملك حينما كان ولياً للعهد ، اذ روي انه قدم الى المدينة المنورة والتقى بكبار محدثيها وطلب منهم تأليف كتاب في السيرة النبوية ، فأحضر (ابان بن عثمان بن عفان) نسخة تحوي اخباراً عن السيرة ، وحينما تصفحها سليمان لم يجد فيها اخيارًا تخص بني امية لتأخر اسلامهم وكونهم من الطلقاء الذين اسلموا بعد فتح مكة (8 هـ) وفيهم من الطرداء ، والاختيار فيه تخص الامام علي ابن ابي طالب (عليه السلام) وكذلك الانصار لذلك امر سليمان بأتلاف الكتاب وابلغ والده عبد الملك بن مروان بما حدث استحسن فعله ، وربما كان عبد الملك قد كلف سليمان بمهمة حث اهل المدينة على تأليف كتاب في السيرة النبوية يحوي اخباراً مشوهة وبعيدة عن الحقيقة 0

ونذكر ايضاً ضمن الاتلاف السلطوي المتعمد لأحدى المكتبات الخاصة ما حل بمكتبة عمر بن شية النميري الذي امتحن في سامراء سنة (231 هـ) بخلق القران ، وعوقب بتمزيق كتبه او حرقها 0

اما بالنسبة للجانب العسكري فقد لعبت الهجمات العسكرية والحروب الدامية دور في القتل والنهب والتدمير والحرب ، فمهما كانت نتائج المعارك فأنها تترك اثراً سيئاً ، اذ ان هجمات العسكرية تحرق الاخضر واليابس كما يقال ، ولعل المكتبات العامة منها والخاصة اكثر ضرراً اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار الامكانيات البسيطة في الكتابة والنسخ والنشر ، في الكتاب اذا ما اتلف لا يمكن تعويضه خاصاً اذا كان بنسخة واحدة فريدة

مقارنة بإمكانيات الطبع والنشر في ايامنا هذه ، اذ يتم طبع الكتاب بمئات او الالاف النسخ ، فأن فقد الكتاب في مكتبة ما ، يمكن الحصوص عليه في مكتبة اخرى او في بلد اخر 0

ومن الشواهد على اثر الهجمات العسكرية في اتلاف المصنفات نذكر ما حل لمدينة البصرة من حروب ومعارك وهجمات كحروب الخوارج ، والزنج ، والقرامطة ، فضلاً عن هجمات الاعراب ، اذ سببت تلك الهجمات الى قتل العديد من العلماء وتشريد عدد اخر منهم ، ونهب مكتباتهم او حرقها ، كما تعرض المسجد الجامع في البصرة لأكثر من هجمة عسكرية وتم حرق اجزاء منه ، وكان من الطبيعي ان يلحق الضرر بخزانة الكتب الموجودة فيه سيما وانه يعد مركزاً فكرياً تعقد فيه حلقات العلم والدرس على يد اكبر العلماء في مختلف صنوف العلم والمعرفة ، وبهذا الصدد نذكر ما أوقعته هجمات الزنج على البصرة (255 /270 هـ)من إضرار في بعض المكتبات الخاصة ، ومنها مكتبة ابن ابي عاصم النبيل (ت257 هـ) الذي قيل ان كتبه أتلفت خلال هجمات الزنج في البصرة ، وكذلك مكتبة ابي إسحاق الأصفهاني (ت 270 هجرية) وهو من العلماء الذين سكنوا البصرة فقيل " ذهبت كتبه في البصرة في فتنة الزنج" ، وغيرهم ، هذا الى جانب تدمير المسجد الجامع بفعل هجمات الزنج 0

وتسببت هجمات القرامطة على تدمير وحرق مسجد البصرة ايضاً ، وكذلك هجمات الاعراب وهجمات بني عامر –متاضحة للأحساء – في سنة (483 هـ) والتي اسفر عنها حرق دارين للكتب قيل كان بهما نفائس الكتب ، وهجمات قبائل ربيعة والمنتفق سنة (499 هـ) اذ استباحوا البصرة مدة (32)يوم حرقاً ونهباً ، فنهبت خزانة كتب كبيرة وقفها القاضي ابن ابي البقاء ، وهجمات بني عامر ايضاً سنة (558 هـ) فضلاً عن هجمات المغول حين اقتحامهم لبغداد سنة (656 هـ) واسفرت عن حرق اعداد كبيرة من المكتبات ففي روايات لا تخلوا من المبالغة ذكر ان نهر دجلة صار لونه اسود بسبب لون الحبر الناتج عن غرق الكتب 0

ثانياً : الاسباب الطبيعية :

تشكل الاسباب الطبيعية نسبة اقل من السياسية والعسكرية في ضياع المصنفات كما انها تحدث بشكل غير متعمد ، فالحرائق والفيضانات ، وارتفاع درجات الحرارة والرطوبة العالية تلعب دور في اتلاف خزائن الكتب بأكملها ، فضلاً عن الآفات كالقوارض المختلفة 0

ومن الشواهد على ذلك الفيضانات التي تعرضت لها بغداد ، اذ شكل زيادة مياه نهر دجلة سبباً في دخول المياه لبعض المكتبات وقيل انها غمرت المدرسة النظامية واتلفت مكتبتها ، وكذلك الفيضانات التي وصل تأثيرها الى المدرسة المستنصرية وقيل ان اغلب الكتب فيها تمثل خزائن بيت الحكمة ضُمت الى مكتبة المدرسة المستنصرية ، اما الحرائق فوردت

الاشارة الى حرائق شبت في الدور المخصصة لسكنى بعض العلماء وطلبة العلم في النظامية وذكر ان النيران التهمت بعض كتب خزانة المدرسة النظامية ، وحاول العلماء انقاذ ما يمكن انقاذه من الكتب 0

ثالثاً : الاسباب الذاتية : عمد بعض العلماء على اتلاف مكتباتهم ، او بعض كتبهم او احدها الاسباب تتعلق بتغير قناعاتهم ، وللتحول الى مذهب او متبنى فكري او للتحول الى الزهد ، مما يستوجب معها اتلاف الكتب السابقة لذلك التحول او بالحرق او بالتغريق بالماء ، او دفنها تحت الارض ، وكان بعضهم يقوم بهذه المهمة في حيلته ، والبعض الاخر يوصي بإتلافها بعد وفاته ، وهناك من اتلف كتبه او مكتبته خشية وقوعها في ايدي من لا يدرك قيمتها او لا يفهم محتواها فيشكل ذلك وزراً ثقيلاً عليه ، والشواهد في هذا المجال عديدة نذكر على سبيل المثال ما قام به ابو عمرو بن علاء (ت153 هـ) ، اذ احرق مكتبته وقيل انها كانت مكتبة ضخمة ، وجاء مؤمل بن اسماعيل العدوي (ت 206 هـ) ، دفن كتبه قبل وفاته ، وقد يكون وفاة المؤرخ وانتقال مكتبته سبباً في بعثرة الكتب واتلافها ، فقد ذكر ابن النديم ان مكتبة عمر بن شية اتلفها ابنه ابو طاهر احمد فقيل انه باعها ، وذكر انه قد اعتبط ، ولعل عبطه وحمقه كان سبباً في التفريط بكتب ابيه 0

ومن الاسباب الذاتية ذكر ان الغيرة دفعت زوجة الامير الليث ابن المظفر بن نصر بن سيار الى حرق كتاب العين الذي اهداه له الفراهيدي وكان كتاباً مفضلاً لديه ، وغيرها من الشواهد الاخرى التي تكشف جميعها عن حجم الضياع الذي اصاب تراثنا الاسلامي ، وبضياع ذلك الكم الكبير من المصنفات ضاع معها الحقيقة التاريخية خاصة بالنسبة للإتلاف المتعمد الذي مارسته السلطات الحاكمة (الاتلاف السلطوي) ، حيث تعمدوا تغييب الحقيقة وتشويه التاريخ بروايات مضللة وموضوعة لا تمت في الكثير منها للحقيقة بشيء 0